أثر الكفر (٢)

محسن الأسدي

... إنّ رسول الله ﷺ لقي أباجهل، فصافحه أبوجهل، فقيل له في ذلك! فقال: والله، إني لأَعلم أنه صادق، ولكنّا متى كنّا تبعاً لعبد مناف. وفي خبر التقى أخنس بن شريق وأبوجهل بن هشام، فقال له: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب، فإنه ليس هاهنا أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا؟ فقال أبوجهل: ويحك! والله، إنَّ محمداً لصادق، وما كذب قطُّ، ولكن إذا ذهب بنو قُصّي باللواء والحجابة والسقاية والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟!

وليس أبوجهل ينفرد بمواقفه هذه، فهناك غيره من زعماء الشرك، ومنهم الحارث بن عامر بن نوفل بن مناف بن قصي بن كلاب، كان يكذب النبيَّ بالعلانية، وإذا خلا مع أهل بيته، قال: ما محمد من أهل الكذب، ولا أحسبه إلاّ صادقاً. فنزلت الآية ٣٣ من سورة الأنعام:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَـكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾.

إنَّ كفر مشركي مكة وبالذات كفر أبي جهل وأبي لهب وأُبي بن خلف وإصرارهم على الكفر ومعاداتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وحربهم له بكلّ ما أوتوا من قوة، ومحاولاتهم قتله و وأد دينه، لم يكن مبنياً على عدم معرفة برسول الله صلى الله عليه وآله ورسالته وآياته البينات ومعجزاته وعلى رأسها القرآن الكريم المعجز الدال على نبوّته والمصدق لرسالته، بل كان منهم تعالياً وعناداً واستكباراً وبغياً وبغضاً وحسداً؛ حتى أنّ بعضهم بقي يُشكك بالصانع وبالتوحيد، ولا يطيق الاعتراف بالنبوّة لرسول الله صلى الله عليه وآله وإن شهد الشهادة الأولى، فظلَّ رافضاً للشهادة الثانية بالنبوّة، وحتى بعد أن نطق بها، نطق بها متردداً؛ ألا ترى أنَّ أبا سفيان بن حرب، الذي كان في الجاهلية يُنسب إلى الزندقة، لما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ليسلم، عام الفتح، قال له النبي صلى الله عليه وآله:

أما آن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله؟

قال: بلى، فشهد.

قال: أما آن لك أن تشهد أني رسول الله؟

قال: أما هذه ففي النفس منها شيء!

وفي حديث ابن عباس، عَنْ أبيه، أنه لما أتى به العباس وقد أردفه خلفه يوم الفتح إلى رسُول الله صلى الله عليه وآله، وسأله أن يؤمنه، فلما رآه رسُول الله صلى الله عليه وآله، قَالَ له: ويحك يا أبا سفيان أما آن لك أن تعلم أن لا اله إلاّ الله!

فقال: بأبي أنت وأمّي، ما أوصلك وأحلمك وأكرمك! والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إلهًا غيره لقد أغنى عني شَيْئًا!

فقال: ويحك يا أبا سُفْيَان، ألم يأن لك أن تعلم أني رَسُول الله؟!

فقال: بأبي أنت وأمّي، مَا أوصلك وأحلمك وأكرمك! أما هذه ففي النفس منها شيء! ... أما هذه والله، فإنَّ في النفس منها حتى الآن شيئاً! وفي رواية فقال له العباس: ويلك! اشهد شهادة الحق قبل أن تضرب عنقك، فشهد وأسلم.

ثم سأل له العباس رسُول الله ﷺ أن يؤمن من دخل داره، وقال: إنه رجل يحبّ الفخر والذكر، فأسعفه رسُول الله ﷺ في ذلك، وقال: «من دخل دار أبي سُفْيَان فهو آمن، ومن دخل الكعبة فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه عَلَى نفسه فهو آمن».

واختلف في حسن إسلامه، فطائفة ترى أنه لما أسلم حسن إسلامه،... وطائفة ترى أنه كان كهفًا للمنافقين منذ أسلم...

وهكذا كان زعماء قريش وكبراؤها وهم خمسة وعشرون منهم الوليد بن المغيرة وهو أكبرهم وأبو جهل وأبّي وأُمية ابنا خلف وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والنضر بن الحارث كانوا كما وصفهم التنزيل العزيز في مقطع قرآني كريم من سورة ص: ٢ ـ ١١ ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ...﴾.

في تكبر عن قبول الحقّ، وحمية جاهلية.. والمراد بالعزة ما يظهرونه من الاستكبار عن الحق، لا العزة الحقيقية فإنها لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، لقد جاؤوا أبا طالب رضوان الله عليه، وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا وقد أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك فإنه سفه أحلامنا وشتم آلهتنا فدعا أبو طالب رسول الله ﷺ وقال: يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك. فقال: «ماذا يسألونني» قالوا: دعنا وآلهتنا ندعك وإلهك. فقال ﷺ: «أوتعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب والعجم». فقال أبوجهل: لله

أبوك نعطيك ذلك وعشر أمثالها فقال: «قولوا لا إله إلا الله». فقاموا وقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً فنزلت هذه الآيات وروي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله استعبر ثم قال: «يا عم والله لو وضعت الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا القول حتى أنفذه أو أقتل دونه». فقال له أبو طالب: امض لأمرك، فوالله لا أخذلك أبداً!

وكذا الجحود:

من الفعل جَحَدَ الأمرَ وبه يجحد جحداً وجُحوداً: أنكره مع علمه به، حتى ساوى بعض علماء اللغة في المعنى بين الإنكار والجحد والجحود، فعن الجوهري: الجحود: الإنكار مع العلم، وفي اللسان: الجحد والجحود: نقيض الإقرار، كالإنكار والمعرفة، ولهذا قالوا: إنما يقع الجحود بعد المعرفة. فالجحود يُشبه الكتمان والإخفاء، إن لم يتضمنهما، ففيه كتمان للحقيقة التي تُنكرظاهراً؛ لساناً فيما القلوب تؤمن بها وتُقرُّ بها.. وفي التنزيل العزيز: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهم**﴾.[1] الرازي: أنهم جحدوها بألسنتهم واستيقنوها في قلوبهم وضمائرهم، والاستيقان أبلغ من الإيقان.. أما قوله: ﴿**ظُلْماً وَعُلُوّاً**﴾، فأي ظلم أفحش من ظلم من استيقن أنها آيات بينة من عند الله تعالى، ثم كابر بتسميتها سحراً بيناً.

فتراهم يعرفون آياته تعالى الدالة على أنَّ القرآن من عنده، فإعجازه وتحديه لهم، فالتحدي كان عاماً لهم جميعاً، إن هم في مكة أو في المدينة أو في أيّ مكان آخر، تحداهم وهم أفصح الأمم، لا أنهم بلا فصاحة أو معرفة باللغة التي نزل بها القرآن، كانوا بقواعدها وبلاغتها وفصاحتها وأشعارها هم الأعرف ، ومع هذا عجزوا عن ذلك حين تحداهم مرات ومنها أن يأتوا ﴿**بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ**

---

١. سورة النمل : ١٤.

اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.[١] وما أن عجزوا حتى تحداهم أخرى أن يأتُواْ ﴿**بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾.[٢]

ولكنهم، وإن عجزوا عن هذا التحدي الصريح لهم، وأنه لا قدرة لهم على ذلك، كتموا إيمانهم وجحدوا به في ظواهرهم عناداً واستكباراً وتصلباً في كفرهم.. فارتضوا لأنفسهم أن يكونوا ممن يجحد بأدلة الله تعالى وحججه ونعمه، وينكر توحيد الله تعالى وربوبيته على علم منه وعنادٍ.. ﴿**... وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ إِلاَّ ٱلْكَافِرونَ**﴾.[٣]

فهذا الوليد بن المغيرة المخزومي من كبرائهم ومن أكثرهم مالاً ومعرفةً بآداب العربية وبلاغتها، راح يصف القرآن الكريم وقوة تراكيبه وبلاغته وسموّ معانيه وعذوبة ألفاظه وجزالتها، حيث يقول بعد أن سمع آياتٍ منه تُتلى..

فقد روي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لما أنزل عليه: ﴿**حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ**﴾.[٤]

قام إلى المسجد والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته، فلما فطن النبيّ صلى الله عليه وآله لاستماعه لقراءته أعاد قراءة الآية، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم فقال: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمُثْمر، وإنّ أسفله لمُغْدق، وإنه ليعلو وما يعلى.

---

١. سورة هود : ١٣.

٢. سورة البقرة : ٢٣ .

٣. سورة العنكبوت : ٤٧ .

٤. سورة غافر: ١ ـ ٣ .

وفي رواية أنَّ قريشاً قالت: لئن صبأ الوليد، لتصبونَّ قريش كلُّها! فقال أبوجهل: أنا أكفيكموه! فدخل عليه... وبعد تفكير طويل قال: إنه سحر يؤثر، أما ترون أنه يفرّق بين المرء وأهله وولده ومواليه؟!

وعن ابن عباس أنّ الوليد بن المغيرة جاء إلى النبيﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رقَّ له.

فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إنّ قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً! قال: لِمَ؟ قال: ليعطوكه فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له أو أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟! فوالله ما فيكم من رجل أعلم بالأشعار ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إنّ لقوله الذي يقول حلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه!

قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحرٌ (يؤثر يأثره عن غيره)، فنزلت: ﴿**ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا... * ...كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا**﴾.

﴿**...فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ... * ... إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ**﴾.[1]

فكان الوليد بن المغيرة هذا مصداقاً لمن جحد نعم الله تعالى وجحد آياته وأنكرها مع معرفته بها حتى مات على جحوده وكتمانه وتغطيته للحقِّ معانداً، وغير شاكر ما أسدي إليه من نعمة واسعة ممتدة، وأي ظلم أفحش من ظلم من استيقن أنَّ القرآن آيات بينات من عند الله تعالى، ثم كابر بتسميتها سحراً بيناً؟! فكان حقًّا شديد

---

١. سورة المدثر .

الغدر شديد الكفر! ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.[١] فهذه المبالغة الوصفية ﴿خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾. تليق به وبمن هو على سيرته ممن يُنكرون آيات الله الواضحة!

وهكذا كانت مواقفهم تلبيساً وكتماناً وجحوداً لرسالة السماء بقرآنها ونبيّها، فمَن قلّت شكوكه وتأمل الحجّة أسلم، ومن كثرت شبهه، وأعرض عن تأمل الحجّة حقّ تأملها، أو أخذته العزّة بنفسه وبطغيانه وسلطانه، مات على موقفه الرافض للرسالة والرسول صلى الله عليه وآله.[٢]

أقسام الكفر في القرآن الكريم:

وكما ذكرنا إنَّ الآيات القرآنية التي وردت فيها كلمة الكفر بمشتقاتها قد بلغت أكثر من خمسمئة مرةً؛ وهي تتحدث عن مصاديق عديدة، فكما أنَّ للإيمان والإسلام مراتب ودرجات، كذلك للكفر مراتب وأقسام ذكرها الأعلام، نبدأ ذلك بما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تقسيم الكفر حيث ورد عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن بكر بن صالح، عن القاسم بن يزيد، عن أبي عمرو الزبيري، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

«قلت له: أخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله عزَّوجلَّ! قال: الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه؛ فمنها: كفر الجحود، والجحود على وجهين. والكفر بترك ما أمر الله. وكفر البراءة ... وكفر النعم. فأما كفر الجحود فهو الجحود بالربوبية وهو قول من يقول: لاربّ ولا جنة ولا نار، وهو قول صنفين من الزنادقة؛ يقال لهم: الدهرية وهم

---

١. سورة لقمان : ٣٢ .

٢. انظر السيرة النبوية، لابن هشام: فتح مكة؛ وإعجاز القرآن، للباقلاني، الفصل الأول في أنّ نبوة النبيّ معجزتها القرآن؛ وتفسير مجمع البيان، للشيخ الطبرسي، أوائل سورة ص؛ وأسباب النزول، للواحدي : الآيات.

الذين يقولون:﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاَّ الـدَّهْرُ﴾.[١] وهو دين وضعوه لأنفسهم بالاستحسان على غير تثبت منهم ولا تحقيق لشيء مما يقولون. قال الله عزَّوجلَّ: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾.[٢] إنّ ذلك كما يقولون وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾.[٣] يعني بتوحيد الله تعالى؛ فهذا أحد وجوه الكفر. وأما الوجه الآخر من الجحود على معرفة (والصواب: «فهو الجحود على معرفة» كما في الهامش ٣ من الصفحة ٣٨٩، الكافي). وهوأن يجحد الجاحد وهو يعلم أنه حق، قد استقر عنده، وقد قال الله عزَّوجلَّ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾. وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿... وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ﴾.[٤] فهذا تفسير وجهي الجحود. والوجه الثالث من الكفر: كفر النعم؛ وذلك قوله تعالى يحكي قول سليمان عليه السلام: ﴿... قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.[٥] ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ...﴾.[٦] ﴿فَاذْكُرُونِيَ أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾. والوجه الرابع من الكفر: ترك ما أمر الله عزَّوجلَّ به؛ وهو قول الله عزَّوجلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَـؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ

---

١. سورة الجاثية : ٢٤ .

٢ سورة الجاثية : ٢٤ .

٣. سورة البقرة : ٦ .

٤. سورة البقرة : ٨٩ .

٥. سورة النمل : ٤٠ .

٦. سورة إبراهيم : ٧ .

وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.[١]

فكفَّرهم بترك ما أمر الله عزَّوجلَّ به، ونسبهم إلى الإيمان ولم يقبله منهم ولم ينفعهم عنده فقال: **﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾**.[٢]

والوجه الخامس من الكفر: **﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَآءُ أَبَداً حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِاللهِ وَحْدَهُ﴾**. يعني تبرأنا منكم. وقال يذكر إبليس وتبرئته من أوليائه من الإنس يوم القيامة: **﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**.[٣] **﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً...﴾**.[٤] يعني يتبرأ بعضكم من بعض».[٥]

أما الأعلام ، فلهم أقوال في أنواع الكفر:

الفراهيدي: والكفر أربعة أنحاء: كفر الجحود مع معرفة القلب، كقوله عزَّوجلَّ: **﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾**.[٦] وكفر المعاندة: وهو أن يعرف بقلبه، ويأبى

---

١. سورة البقرة : ٨٤ ـ ٨٥ .

٢. سورة البقرة : ٨٥ .

٣. سورة إبراهيم : ٢٢ .

٤. سورة العنكبوت : ٢٥ .

٥. أصول الكافي، للشيخ الكليني ٢ : باب وجوه الكفر ٣٨٩ ـ ٣٩١ ح ١؛ الوسائل: ١، الباب ٢ من أبواب مقدمات العبادات، الحديث ٩ و ١٣.

٦. سورة النمل : ١٤ .

بلسانه.

وكفر النفاق: وهو أن يؤمن بلسانه والقلب كافر. وكفر الإنكار: وهو كفر القلب واللسان.

أما ابن منظور في اللسان، فهو وإن تبع الفراهيدي فيما ذكره من أنحاء الكفر، لكنه: أولاً: أضاف عليها: كفر البراءة. وثانياً: كان أكثر تفصيلاً لهذه الأنحاء، ونحن نقتبس شيئاً مما ذكر:

الكُفْرُ على أربعة أنحاء:

كفر إنكار بأن لا يعرف الله أصلاً ولا يعترف به.

وكفر جحود... وكفر معاندة... وكفر نفاق. من لقي ربَّه بشيء من ذلك لم يغفر له ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. فأما كفر الإنكار فهو أن يكفر بقلبه ولسانه ولا يعرف ما يذكر له من التوحيد وكذلك روي في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾. أي الذين كفروا بتوحيد الله. وأما كفر الجحود فأن يعترف بقلبه ولا يقرّ بلسانه فهو كافر جاحد ككفر إبليس وكفر أُمَيَّةَ بن أبي الصَّلْتِ ومنه قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ**﴾. يعني كُفْرَ الجحود. وأما كفر المعاندة فهو أن يعرف الله بقلبه ويقرّ بلسانه ولا يَدِينَ به حسداً وبغياً ككفر أبي جهل وأضرابه .. وأما كفر النفاق فأن يقرّ بلسانه ويكفر بقلبه ولا يعتقد بقلبه.. والكفر أيضاً بمعنى البراءة كقول الله تعالى حكايةً عن الشيطان في خطيئته إذا دخل النار: ﴿**إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ**﴾. أي تبرأت.

وكتب عبدُ الملك إلى سعيد بن جُبَيْر يسأله عن الكفر فقال:

الكفر على وجوه فكفر هو شرك يتخذ مع الله إلهاً آخر. وكفر بكتاب الله ورسوله. وكفر بادِّعاء ولد الله .

وكفر مُدَّعي الإِسْلام وهو أن يعمل أعمالاً بغير ما أنزل الله ويسعى في الأَرض

فساداً ويقتل نفساً محرّمة بغير حقٍّ ثم نحو ذلك من الأَعمال كفران أحدهما كفر نعمة الله والآخر التكذيب بالله وفي التنزيل العزيز: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ**﴾...

وهناك تقسيم آخر للكفر ذكره التفتازاني حيث قال: الكافر إن أظهر الايمان خصّ باسم المنافق، وإن كفر بعد الاسلام فبالمرتد. وإن قال بتعدد الآلهة فبالمشرك. وإن تدّين ببعض الأديان فبالكتابى. وإن أسند الحوادث إلى الزمان واعتقد قدمه فبالدهرى. وإن نفى الصانع فبالمعطّل. وإن أبطن عقائد هي كفر بالاتفاق فبالزنديق.

وأما في معجم لغة الفقهاء، فإنَّ الكافر: اسم فاعل، كافرون وكفرة وكفار، مَن لا يؤمن بالله ولا بمحمد رسول الله، أو من ينكر ما هو معلوم من الإسلام بالضرورة، أو ينتقص من مقام الله تعالى أو الرسالة..

الكفر: بضم فسكون مصدر كفر: الستر، ويقابله الشكر.

تكذيب النبيّ صلى الله عليه وآله بما جاء به مما هو معلوم من الدين بالضرورة، وهو ضد الإيمان بعد هذا يذكر أنواعه وهي:

كفر الإنكار: وهو أن يكفر بقلبه ولسانه، فلا يعتقد الحقَّ ولا يقرّ به. كفر العناد: وهو أن يؤمن بما جاء به النبيُّ صلى الله عليه وآله بقلبه وينكره بلسانه. كفر النفاق: وهو أن لا يعتقد بقلبه بما جاء به النبيُّ صلى الله عليه وآله ولكنه يقرُّ به بلسانه. كفر ملة: وهو أن يأتي بما يُخرجه عن الإسلام من قول أو فعل أو اعتقاد.[١]

---

١. انظر التوقيف على مهمات التعاريف، معجم لغوي مصطلحي لمحمد عبد الرؤوف المُناوي (ت ١٠٣١هجرية)؛ معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية د. محمود عبد الرحمن عبد المنعم ٣ : ١٥٠ــ١٥٢؛ كتاب العين أقدم معجم عربي، للفراهيدي (ت ١٧٤ هجرية)، ٥ : ٣٥٦ــ٣٥٦ باب الكاف والفاء

كفر عمل: وهو ارتكاب المؤمن المعاصي التي لاتخرجه عن الإيمان ومن ذلك: ﴿**وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾.

وبعد كلّ ما ذكرناه ، نحن هنا أمام نتيجتين خطيرتين توفّرت عليهما هذه الآية:

الأولى: الكفر في ﴿**وَمَنْ كَفَرَ**﴾.

الثانية : الاستغناء في ﴿**فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ**﴾.

ولعلّهما جاءتا بياناً لأهمية هذا البيت وآياته وبركاته، واعتناءً به، وتأكيداً وحثًّا على حجّه والاعتمار به؛ وتحذيراً من التساهل بهما؛ لما يترتب عليهما من منافع كثيرة؛ خير وعطاء وأجور عظيمة ومغفرة للذنوب...!

وأيضاً لعلّهما جاءتا استعظاماً وتغليظاً وتشديداً على كلِّ من تحدّثه نفسه الاستخفاف بمقام هذا البيت وتحذيراً من ترك حجّه الذي شاء الله تعالى أن يكون فريضةً للناس، ليس لأحد توفرت فيه شروطها؛ إلاّ الاستجابة وتلبية ندائها.

ربما ـ والله أعلم ـ يظهر لنا كلُّ هذا مما توفّرت عليه آية الوجوب ـ وكما ذكرنا ـ من وجود اللام في اسم الجلالة ﴿**لِلهِ**﴾ و وجود ﴿**عَلَى**﴾، في قوله: ﴿**عَلَى النَّاسِ**﴾. وبالتالي فهو حقٌّ واجب أداؤه عليهم، ومن مجيء ﴿**وَ مَنْ كَفَرَ**﴾، مكان (ومن لم يحجّ) في قول؛ فيه تغليظ على تاركه، حتى ورد: «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً»!

«من لم يحبسه حاجة ظاهرة من مرض حابس أو سلطان جائر ولم يحج فليمت إن شاء يهوديّاً وإن شاء نصرانيّاً»!

ومن إظهار الغني وتهويل الخطب بذكر اسم الله دون أن يقول: «فإنه» أو «فإني»

والراء؛ لسان العرب، لابن منظور: الكفر؛ شرح المقاصد، للتفتازاني (٧٩٣ هجرية)، ٥ : ٢٢٧؛ معجم لغة الفقهاء : ٣٨٣.

يدل على غاية السخط والخذلان.

وأيضاً من وضع المظهر مقام المضمر حيث قال: ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾. ولم يقل «عنه» لأنه تعالى إذا كان غنياً عن كلّ العالمين، فلئن يكون غنياً عن طاعة ذلك الواحد أولى. وإنَّ ذكر الاستغناء لأدلّ على عظم سخط السماء على من وقف موقفاً سلبياً معارضاً غير مبال بمقام هذه البيت وآياته ومعالمه التي فيه...!

سبب النزول:

من خلال أسباب النزول نعرف أيضاً من المراد بـ: ﴿وَ مَنْ كَفَرَ﴾.

أيُّ كفر ؟!

ففي الروايات: ما نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قرأ: ﴿وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

فقام رجل من هذيل، فقال: يا رسول الله من تركه كفر؟

قال: «مَنْ تَرَكَهُ وَلاَ يخافُ عُقُوبَتَهُ، وَمَنْ حَجَّ وَلا يَرْجُو ثَوَابَهُ، فَهُوَ ذَاكَ».

وفي جواب الإمام أبي عبد الله عليه السلام عن سؤال: أرأيت قول الله: ﴿وَ مَنْ كَفَرَ﴾، أهو في الحج؟

قال عليه السلام: «نعم ـ قال ـ : هو كفر النعم. و قال: «ومن ترك»، في خبر آخر.

وأما الأقوال فقد تعددت في نوع الكفر هذا، ويبدو أنَّها تناولت في الغالب أهمَّ معاني الكفر وأقسامه، فهي بين كفر جحود.. وكفر معصية.. وكفر إنكار.. وكفر ترك؛ وعبر عن ترك الحجّ بالكفر تغليظاً وتشديداً على تاركه.. وكفر نعمة، أو كفران النعمة؛ لأنَّ امتثال أمر الله شكر لنعمته...

فالطبري بعد أن يذكر سبعة أقوال مع رواياتها يخلص إلى أنَّ هذه التأويلات وإن اختلفت العبارات بها فمتقاربات المعاني، ويبين أنَّ أولى التأويلات بالصواب في ذلك قول من قال: معنى ﴿وَ مَنْ كَفَرَ﴾: ومن جحد فرض ذلك وأنكر

وجوبه، فإن الله غنـيّ عنه وعن حجّه وعن العالـمين جميعاً.

والرازي: ورابعها: أن ظاهر اللفظ يقتضي إيجابـه علـى كـل إنسـان يسـتطيعه، وتعميم التكليف يدل على شدة الاهتمام، وخامسها: أنه قال ﴿وَ مَنْ كَفَرَ﴾ مكان، ومـن لم يحج؛ وهذا تغليظ شديد في حق تارك الحج. وسادسها...

أما ابن الجوزي فذكر في ﴿وَ مَنْ كَفَرَ﴾ خمسة أقوال وأصحابها:

من كفر بالحج فاعتقده غير واجب، عن ابن عباس، وابن جريج عن مجاهد، وبه قال الحسن، وعطاء، وعكرمة، والضحاك، ومقاتل. من لم يرجُ ثـواب حجّـه، ولم يخـف عقاب تركه، فقد كفر به، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وابن أبي نجـيح عـن مجاهد.

إنه الكفر بالله، لا بالحج، وهذا المعنى مروي عن عكرمة، ومجاهد.

إنه إذا أمكنه الحج، فلم يحج حتى مات، وسم بين عينيه: كافر، هـذا قـول ابـن عمر.

إنه أراد الكفر بالآيات التي أُنزلت في ذكر البيت؛ لأنَّ قوماً من المشـركين قـالوا: نحن نكفر بهذه الآيات، هذا قول ابن زيد.

فيما ذهب أبو حيان إلى نوعين من الكفر:

* كفر جحود ذاكراً ثلاثة أقوال فيه:

قول ابن عباس: بوجوب الحج، فمن زعم أنه ليس بفرض عليه فقد كفر. وقـال مثله: الضحاك، وعطاء، والحسن، ومجاهد، وعمران القطان. وقول ابن عمر وغيره: ومن كفر بالله واليوم الآخر. وقول ابن زيد: ومن كفر بهذه الآيات التي في البيت.

* كفر معصية ذاكراً قولاً واحداً وهو للسدي وجماعة: مَنْ كفر بأنْ وجد ما يحجّ به فلم يحجّ.

السيد العلاّمة: الكفر هاهُنا من الكفر بالفروع نظير الكفر بترك الصـلاة والزكـاة

فالمراد بالكفر الترك. والكلام من قبيل وضع المسبب أو الأثر مقام السبب أو المنشأ كما أن قوله ﴿فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ﴾ من قبيل وضع العلة موضع المعلول والتقدير ومن ترك الحج فلا يضر الله شيئاً فإنّ الله غني عن العالمين..

محمد رشيد: تأكيد لما سبق ووعيد على جحوده، وبيان لتنزيه الله تعالى بإزالة ما عساه يسبق إلى أوهام الضعفاء عند سماع نسبة البيت إلى الله، والعلم بفرضه على الناس أن يحجوه من كونه محتاجاً إلى ذلك. فالمراد بالكفر: جحود كون هذا البيت أول بيت وضعه إبراهيم للعبادة الصحيحة، بعد إقامة الحجج على ذلك، وعدم الإذعان لما فرض الله من حجه والتوجه إليه بالعبادة. هذا هو المتبادر. وحمله بعضهم على الكفر مطلقاً على أنه كلام مستقل لا متمم لما قبله، وهو بعيد جداً، وبعضهم على ترك الحج وهو بعيد أيضاً، وإن دعموه بحديث أبي هريرة مرفوعاً: «من مات ولم يحج فليمت..»... والروايات كلها ضعيفة... ومن الموضوعات...[1]

﴿فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

الغَنِيُّ: من أسمائه تعالى، وهو الذي لا يحتاج إلى أحد سِواه في شيء، وكل أحدٍ محتاجٌ إليه، وغني عنه: أي مستغن... وفي الآية لم يقل عنه لما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان؛ لأنّه إذا استغنى عن العالمين فقد استغنى عنه لا محالة، ولأنه يدلّ على الاستغناء الكامل فكان أدلّ على عدم القبول... فإنَّ جميع المخلوقات مفتقرة في وجودها ودوامها إلى الله تعالى، ومنها الإنسان فرداً كان أو جماعةً أو أمّةً، فقيراً كان أو

---

١. انظر الطبري في تفسيره؛ البرهان في تفسير القرآن، هاشم الحسيني البحراني (ت١١٠٧هـ)؛ مجمع البيان، للطبرسي؛ تفسير زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (ت٥٩٧ هـ)؛ تفسير الميزان؛ تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا (ت١٣٥٤هـ).

غنيًّا، ضعيفاً كان أو قويًّا، تابعاً كان أو متبوعاً، شاء أم أبى، أحبّ أم كره، علم أو جهل، فالعباد مفتقرون إليه تعالى؛ لأنَّ الفقر في العباد ذاتيٌّ أصيل، لا ينفكّ عنهم أبداً، فيما الغنى وصف ذاتي أصيل لله تعالى.. وهكذا الاستغناء فهو حقيقي إذا نُسِبَ إلى الله، أما إذا نُسب إلى الإنسان؛ حين يستغني بقوته وسلطانه، بصحته وعافيته، بعلمه وثقافته، بأنصاره ومريديه.. ومهما كان، فإنّه لا حقيقة له، زبدٌ و وهمٌ و ضلالٌ..

﴿يَا اَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

ابن عاشور:.. وجملة: ﴿أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ﴾ تفيد القصر لتعريف جزأيْها، أي قصر صفة الفقر على الناس المخاطبين قصراً إضافياً بالنسبة إلى الله، أي أنتم المفتقرون إليه وليس هو بمفتقر إليكم، وهذا في معنى قوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾،[1]

البيضاوي: ﴿يَا اَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللهِ﴾، في أنفسكم وما يعن لكم، وتعريف الفقراء للمبالغة في فقرهم؛ كأنهم لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء، وأن افتقار سائر الخلائق بالإِضافة إلى فقرهم غير معتد به، ولذلك قال: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾.[2]

﴿وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ المستغني على الإِطلاق المنعم على سائر الموجودات حتى استحق عليهم الحمد.

وقد وردت مفردة ﴿الغَنِيُّ﴾، ثماني عشرة مرّةً في التنزيل العزيز صفة ذاتية لله تعالى، نختار منها ما له علاقة بمقالتنا، فكم هو رائع أننا نجد هذه المقابلة بين الكفر الذي يصدر من المخلوقين ويتصفون به وهو على الضدِّ من الشكر، والغنى الذي يتصف به الله

---

١. سورة الزمر : ٧ .

٢. سورة النساء : ٢٨ .

تعالى في العديد من الآيات، والتي منها:

﴿... قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَ مَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.[١]

﴿إِنْ تَكْفُرُواْ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلاَ يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.[٢]

إذن فالله تعالى هو من أنعم عليهم بمناسك الحج، وأوضحها لهم بالآيات البينات، وهيّأ لها أماكن مطهرة وأزمنة مباركة مخصوصة وسنَّ لها أحكاماً، وجعل لها أجوراً عظيمة ومغفرة للذنوب وتكفيراً للمعاصي إلى درجة أنَّ مؤديها كما في الروايات يعود منها: «كمن ولدته أمُّه»، وأنَّ: «الحج والعمرة ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد».

فهي فرصة مباركة ومناسبة عظيمة، لم يتعبّدهم بالعبادة فيها لحاجته إليها، وإنّما سنّها لهم وتعبدهم بها لفلاحهم، لصلاحهم، لمنافعهم، والتي تتحقق بالاستجابة والطاعة والعبادة لا بالكفر والعصيان..

وقد صرّحت هذه الآية كما غيرها أنه تعالى غني عن خلقه، وإن أمرهم بالطاعة لا لأنها تنفعه، فليس له من حاجة إلى إيمانهم ولا إلى حجّهم، وإن نهاهم عن شيء لا لأنَّ معصيتهم تضرّه، بل نفع طاعتهم لهم وضرر معصيتهم عليهم.

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا...﴾.[٣]

وكذا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾.[١]

---

١. سورة النمل : ٤٠ .

٢. سورة الزمر : ٧ .

٣. سورة الإسراء : ٧ .

وآيتنا ﴿فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾، لا يخلو الاستغناء الوارد فيها من عدم الرضا، بل ويحمل تحذيراً ووعيداً وسخطاً ومقتاً لمن كفر..؛ مما يدلُّ على خطورة هذا الفعل!

﴿فَإِنَّ اللهَ﴾

﴿غَنِيٌّ﴾ عن إيمانهم، ﴿غَنِيٌّ﴾ عمّن حجَّ وعمّن لم يحجّ، ﴿غَنِيٌّ﴾ عمّن لا يرى حَجَّ البيت برًّا، ولا تركه مأثماً،...

وإنَّ استغناء الله تعالى عمّن كفر بالله واليوم الآخر، عمّن كفر بالبيت وآياته، عمّن جَحَدَ فَرْضَ الحج، عمّن أعرض عن الحجّ بهوى النفس، عمّن ترك البيت وحجّه.. عمّن حجب استعداده مع القدرة فعصى..

عاقبة ما أشدّها وأعظمها على الإنسان! حين يستغني الله عنه، لا يلتفت إليه لبعده عن الله؛ وكونه غير قابل لرحمته، وبالتالي يكون مخذولاً مردوداً من قبله تعالى، وهو أمر بالغ الخطورة والسوء، فمن ذا الذي ينفع هذا المتمرّد على تعاليم السماء، والممتنع عن أداء فريضة الحج، والمعرض عنها وعن القبول بها، وبمعالم البيت المبارك، إذا ما استغنى الله بسلطانه وبغناه عنه، وتركه فرداً؟!

الرازي: فإضافةً لما ذكره أعلاه، وسادسها: ذكر الاستغناء وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان. وسابعها: قوله ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، ولم يقل عنه لأن المستغني عن كلّ العالمين أولى أن يكون مستغنياً عن ذلك الإنسان الواحد وعن طاعته، فكان ذلك أدل على السخط. وثامنها: أن في أول الآية قال: ﴿وَ لِلهِ عَلَى النَّاسِ﴾، فبيّن أن هذا الإيجاب كان لمجرد عزة الإلهية وكبرياء الربوبية، لا لجرِّ نفع ولا لدفع ضر، ثم أكد هذا في

---

١. سورة فصلت : ٦ .

آخر الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

يقول البيضاوي: وتسمية ترك الحج كفراً من حيث إنه فعل الكفرة، وذكر الاستغناء فإنه في هذا الموضع مما يدل على المقت والخذلان، وقوله: ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، يدل عليه لما فيه من مبالغة التعميم والدلالة على الاستغناء عنه بالبرهان والإشعار بعظم السخط؛ لأنه تكليف شاق جامع بين كسر النفس وإتعاب البدن وصرف المال والتجرد عن الشهوات والإقبال على الله...[١]

أبو حيان (ت ٧٥٤ هـ) : فبعد أن يذكر أنَّ: من: شرطية وجواب الشرط الجملة المصدرة بالفاء، والرابط لها بجملة الشرط هو العموم الذي في قوله: ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، إذْ مَن كفر فهو مندرج تحت هذا العموم. يواصل قوله: وفي هذا اللفظ وعيد شديد لمن كفر. ثمَّ يذكر ما قاله ابن عطية: والقصد بالكلام: فإنّ الله غني عنهم، ولكنْ عمَّ اللفظ ليبرع المعنى ويتنبه الفكر على قدرة الله وسلطانه واستغنائه عن جميع الوجوه، حتى ليس به افتقار إلى شيء، لا ربَّ سواه انتهى.[٢]

وقال الزمخشري: ومنها يعني من أنواع التأكيد ذكر الاستغناء عنه، وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان. ومنها قوله: ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، ولم يقل عنه. وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان، لأنّه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء عنه لا محالة. ولأنّه يدلُّ على الاستغناء الكامل، فكان أدل على عظم السخط الذي وقع عبارة عنه.

وقيل: في الكلام محذوف تقديره: فإن الله غني عن حج العالمين.

---

١. تفسير أنوار التنزيل واسرار التأويل، البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ) : الآية .

٢. تفسير البحر المحيط، أبي حيان الأندلسي ٣ : ١٥ .

وقيل: المراد به كفران النعمة؛ لأَن امتثال أمر الله شكر لنعمته، وقد روي عن أبي أمامة عن النبيﷺ أنه قال: «من لم يحبسه حاجة ظاهرة من مرض حابس أو سلطان جائر ولم يحج فليمت إن شاء يهوديّاً وإن شاء نصرانيّاً».

حقًّا إنّه لأمر عجيب!

﴿قُتِلَ الإنْسانُ ما أَكْفَرَهُ﴾!!

فبعد كلِّ ذلك نقف قليلاً عند هذه الآية ١٧ من سورة عبس:

والجملة دعائية، فالقتل دعاء عليه وهو أعظم الشدائد! **﴿مَآ أَكْفَرَهُ﴾**: ما: إمَّا تعجبٌ، وإمَّا استفهامُ تعجبٍ، وبالتالي فهي تحمل التعجب، نكرة تامة بمعنى شيء في محلّ رفع مبتدأ وأكفر: فعل ماض؛ وفاعله مستتر وجوباً تقديره هو والهاء مفعول به.

وإنَّ ما حملته الآية هو أسلوب تعجب: أي ما أعجب كفر الإنسان بأفراده جملةً وبأجياله كافةً بنعم الله تعالى وآياته!

فالإنسان يراد به الكافر، حتى وإن نزلت في مخصوص، كما قيل: في عتبة بن أبي لهب، غاضب أباه فأسلم، ثم استصلحه أبوه وأعطاه مالاً وجهزه إلى الشام، فبعث إلى رسول اللهﷺ أنه كافر برب النجم إذا هوى. وروي أنهﷺ قال: «اللهم ابعث عليه كلبك يأكله».

فلما انتهى إلى الغاضرة ذكر الدعاء، فجعل لمن معه ألف دينار إن أصبح حيًّا، فجعلوه وسط الرفقة والمتاع حوله. فأقبل الأسد إلى الرجال ووثب، فإذا هو فوقه فمزّقه، فكان أبوه يندبه ويبكي عليه، وقال: ما قال محمد شيئاً قط إلاّ كان!

فكان أن **﴿قُتِلَ﴾**، أي لُعن وطُرد عن ساحة القبول عنده تعالى، وأضافوا أيضاً: قاتله الله ما أخبثه! وأخزاه الله ما أظلمه!

فأيّ شيء حداه وبعثه إلى الإعراض عن الله المنعم المتفضل، والانصراف عن طاعته وعبادته، وهذه آياته وبدائع صنعه..

وبعد أن يذكر الزمخشري أنَّ ﴿قُتِلَ..﴾: دعاء عليه، وأنَّها من أشنع دعواتهم؛ لأنّ القتل قصارى شدائد الدنيا وفظائعها. إنّه لأمر عجيب!

﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾، تعجب من إفراطه في كفران نعمة الله، ولا ترى أسلوباً أغلظ منه، ولا أخشن مساً، ولا أدل على سخط، ولا أبعد شوطاً في المذمة، مع تقارب طرفيه، ولا أجمع للأئمة على قصر متنه! فإنه ليستحق القتل على عجيب تصرفه.. فهي صيغة تفظيع وتقبيح وتشنيع لأمره. وإفادة أنه يرتكب ما يستوجب القتل لشناعته وبشاعته..

﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾!..

ما أشد كفره وجحوده ونكرانه لمقتضيات نشأته وخلقته. ولو رعى هذه المقتضيات لشكر خالقه، ولتواضع في دنياه، ولذكر آخرته..

وإلاّ فعلام يتكبر ويستغني ويعرض عن الهدى، ويستغني عن الإيمان، ويستعلي على الدعوة إلى ربّه، يعجب السياق من أمره وكفره، وهو لا يذكر مصدر وجوده، وأصل نشأته، ولا يرى عناية الله به وهيمنته كذلك على مرحلة من مراحل نشأته في الأولى والآخرة، ولا يؤدي ما عليه لخالقه وكافله ومحاسبه، وما هو أصله وما هو مبدؤه؟...![1]

١. انظر كلاً من آل درويش في إعراب القرآن الكريم؛ وأبي حيان في تفسيره البحر المحيط؛ وتفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية(ت٥٤٦ هـ)؛ والزمخشري في تفسيره الكشاف ، وسيد قطب في ظلال القرآن، بتصرف؛ وغيرهم : الآية .